تاريخ ما بين السطور

العذراء التي استعمرت شيلي

رمضان مصطفى سليمان

صراع مع الحياة

أسئلة كثيرة تداعب خيالي الواعي و غير الواعي ، و معظمها يبدأ بلماذا ؟

لماذا كان الأب و الأم يتشاجرا يوميا أمام الطفلة الصغيرة ؟

لماذا ادخل الأب الطفلة الصغيرة الدير ؟

لماذا هربت الفتاة المراهقة من الدير ؟

لماذا ارتدت الشابة الناضجة ملابس الرجال ؟

لماذا قتلت الشابة رفيقها الشاب ؟

لماذا انضمت الشابة إلى الجيش ؟

و أخيرا ما الاتفاقية التي وقعتها في شيلي ؟

❖

و البداية كانت في يوم من أيام عام 1588 في قرية اسبانية صغيرة تدعى تولوسو على مسافة مائة ميل من مدينة سان سباستيان في اسبانيا . في بيت فقير حقير .

تسمع الطفلة الصغيرة كاتالينا الشجار العنيف اليومي الذي يدور بين من ظنته أنه أباها ، و بين أمها الباكية المدافعة عن شرفها ، عن حبها :

أقسم لك يا ميجيل إن هذا كله أوهام تدور في رأسك ، تسببها غيرتك الشديدة ، لم يكن بيني و بين أنطونيو اليزايو أية علاقة ، كاتالينا ابنتك أنت و ليست ابنة أنطونيو ,

يصيح الأب بغضب و بصوت عال :

كفى هراء يا امرأة ، ولولا إنني أحبك لدفعت خنجري إلى قلبك ، الخيانة تجري في دمك .

من أجل هذا قالت الأم و هي تبكي بحرقة :

يا ميجيل دع لي كاتالينا ، تعيش بيننا ، تنعم بحبنا لها ، بدفء الأسرة .

و قال الأب ببرود :

إنني أحبك أنت و ليس هذه الطفلة الغير شرعية التي لا تنتمي إلي ، إنها ابنة أنطونيو اليزايو ، لقد أدرك التعس إنني لن أرحمه ، فغادر القرية هاربا بجلده .

في ضراعة و توسل تقول الأم :

ميجيل ، أنظر إلى كاتالينا ابنتنا ، إنها تشبهك في كل شيء ، تقاطيع وجهها الرقيقة ، طبيعتها النارية العصبية ، إنها ابنتا يا ميجيل .

قال الأب و قد اشتد غضبه :

تشبهني ؟ هل أنا قبيح إل هذا الحد ؟ إن لها أنف أنطونيو الكبير ، و العينان ؟ عيناه الواسعتان كعيون البقر، أما عينا الطفلة اللعينة فأضيق من ثقب مفتاح الباب ، إنها ليست ابنتي ، و هذا نهائي ، لابد أن أتخلص منها ، و لا رجوع في هذا ؟

قالت الأم باكية :

دعني إذن أرسلها إلى امي في فالادوليد .

قال الأب في قسوة :

لا مكان لها إلا الدير ، سأذهب بها في الغد إلى دير الانتجوا في سان سباتيان ، ألم تقولي مرارا أن رئيسة ذلك الدير احدى بنات خالك ؟ و إذا اصررت على الاعتراض ، أخذتها إلى قمة الجبل ، و ألقيت بها لتموت على الصخور المدببة .

مروعة تصيح الأم :

كلا ، كلا ، أرجوك ، أتوسل إليك ، لماذا تقتلها و تعرض نفسك للشنق ؟ ألا يكفي أنهم يتهمونك بين آن و آخر بالاشتراك مع عصابة " فيتوريو " في السطو على الامنين في بيوتهم ليلا . ؟

إني أفعل هذا يا امرأة لأعولك و أعول أطفالك الصغار ، أما هذه الصغيرة بنت السفاح فليس لها عندي إلا الموت ، أو الدير ، اختاري أنت ، و سوغ أنفذ ذلك في الصباح .

و اختارت الأم لابنتها الصغيرة كاتالينا دير الانتحوا فرئيسته هي ابنة خالتها ، دفع بها أهلها إلى الدير و هي في عنفوان شبابها ، بسبب مغامراتها العاطفية المشينة ، الآن صارت البغي السابقة رئيسة لدير ناء في الغابة المجاورة بمدينة سان سباستيان .

في الصباح كان اللص ميجيل دي أروزو قد وضع أمامه على الجواد الطفلة كاتالينا بنت الخامسة و انطلق بها نحو دير الانتحوا .

الصغيرة تعرف الآن تماما إلى أين هو ذاهب بها ، و أن لم تدرك ادراكا واعيا معنى للحديث الذي دار في مساء اليوم السابق بين أبيها و أمها عن حقيقة مولدها .

❖

بسم الله الرحمن الرحيم

" ورهبانية ابتدعوها و ما كتبناها غليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها " صدق الله العظيم

و نظام الرهبنة في التاريخ الكاثوليكي لم ينشأ إلا بتعسف جاهل من بابوات القرن الثالث الميلادي ، ولولا أن يطول بنا الحديث عن تاريخ الأديرة للرجال و النساء في هذا النظام الذي يتنافى مع الطبيعة البشرية ، فيشغلنا عن قصة اليوم لسمعت منا عجائب آثاره المدمرة في حياة الرهبان و الراهبات ، وتداعيات تلك الآثار على من أرغموا و أرغمن على الدخل في سلك الرهبنة بتحريض مريب من القساوسة و الكرادلة و البابوات .

و التاريخ حافل بقصص هؤلاء الرهبان و الراهبات ، و ما كان منهم و منهن من مخاز و آثام .. هلويز و أبيلار ، راهب وراهبة ، و قصتهما أبشع مثال لممارسة الفجور تحت ستر الثوب الأسود .

الراهبة البرتغالية و خطاباتها إلى صاحبها خارج الدين ، خطابات رغم قيمتها الأدبية فهي أتعس صورة لما نسميه في أيامنا هذه الأدب المكشوف .

القس سنافونا رولا الذي كان يعاقب العشاق بالحرق ، ثم يعود إلى داره حيث تنتظره أجمل نساء فلورنسا .

و أما بابوات أمثال الكسندر السادس بورجيا ، و أنوسنتن الثالث و بنتيفلش الرابع ، هؤلاء ملأوا روما بالأبناء عير الشرعيين .

و يمنعنا الحياء من ذكر ما اندفع إليه البابا جريجوري التاسع عدو الاسلام الأكبر ، و يكفي أن تعلم أنه كان من أشد المعجبين بأهل سودوم قوم لوط .

❖

كتبت في مذكراتها :

لم اكن قد رأيت ديرا من قبل ، كنت أسمع أمي تحدثني عن الراهبات و حياتهن في الأديرة النائية ، و كيف يعملن في الحقول المجاورة لتلك الأديرة ، و يعش حياة كلها سعادة و هناء ، فظننت أن أحرم من العدو في مرح و سعادة في تلك الحقول ، و الوديان المزهرة المحيطة بالدير ، و إنني لن ألأعدم صغيرات في مثل سني يلعبن معي و اشاركهن مرحهن و سعادتهن ، و لكنني حين بلغت مع أبي الذي ينكر بنوتي دير انتجوا بجدرانه العالية الكئيبة ، و بابه الخشبي داكن اللون ، و الصحراء القاحلة التي تحيط به من كل جانب إلا من ناحية الجنوب حيث غابة سباستيان الكئيبة ، أدركت إنني دخلت المصيدة حقا .

طرق ميجيل الباب ففتح به رجل في الخمسين من عمره .. قال لنفسه في دهشة :

رجل في دير راهبات ؟ ما معنى هذا ؟ لا غرو ، فرئيسة الدير كانت من قبل من بائعات الهوى . تبيع جسدها لمن يدفع .

و أقبلت نحوه رئيسة الدير ، البغي المتمرسة بقواعد المهنة القديمة ، بادرها ميجيل قي قحة:

إذن فأنت ابنة خالة زوجتي ماريا ، إنك أجمل من أن تكوني راهبة يا سيدتي.

في استنكار قالت رئيسة الدير :

يا سيد ميجيل دي أروزو ، هذه أشياء لا تقال للراهبات ، كان يجب أن أقابلك عند الباب ، و أسمح لك بالدخول .

حقا ؟ فما بال بواب الدير ، رجل لم يدخل في السن مدخلي ؟

و كذبت الرئيسة :

إنه ليس البواب ، لقد كان يعمل إلينا في سان سباستيان تموين العام كله ، و سيغادر الدير في الحال .

ما لي أنا و لهذا على أي حال ، ها هي كاتالينا .

أهلا بك يا طفلتي

الذي أعلمه أن ماريا كتبت إليك في شأنها أنها ابنى ماريا ، و ليست ابنتي .

الله يأبى أن تقول هذا هنا أيها السيد .
ساخرا قال ميجيل :
حقا ؟ ها هي قد صارت في عهدتك منذ هذه اللحظة سواء أكانت ابنتي أم ابنة سواي ، المؤكد على أي حال إنها ابنة ماريا ، لا تنتظري أن أتردد على الدير لزيارتها ، هذه آخر مرة أراها فيها ، وداعا .
و بكت الصغيرة ، حاولت أن تتشبث بثياب الرجل الذي ينكر بنوته ، كانت تحبه ، ولكنه دفع يدها في غلظة و قفز إلى جواده ، و غادر الدير مسرعا .

❖

عشر سنوات مرت على كاتالينا ، و بلغت كاتالينا الخامسة عشرة ، تعلم فن الرهبنة ، و ترى فن الخلاعة المستتر في الغرف في ، في الحديقة الخلفية ، في الفضاء الواسع .
كتبت فيما بعد في مذكراتها عن تلك السنوات البغيضة :
لم يفارقني لحظة الاحساس بالغربة و الوحشة و المرارة ، إنها أتعس سنوات حياتي ، الشعور بأنني طفلة غير مرغوب فيها كان يؤرقني كل الارق ، يملأ صدري بغضا لكل الناس ، لكل شيء حولي ، لم يأت أحد لزيارتي منذ اللحظة التي أغلق عليّ باب الدير ، لا أمي التي كانت تدافع عني أمام أبي الحقيقي أو الموهوم ، طالما بللت مخدتي بدموع الألم و الغيظ معا .
كنت أدعو الرب صباح مساء أن ينقذني من هذا العذاب ، أو يأخذ روحي الطاهرة البريئة ، و لكن هيهات .
فكرت كثيرا في الفرار ، و لكن عين الفريز بواب الدير ، و الذي كان في نفس الوقت الصديق الأثير لقريبتي رئيسة الدير و عشيقها في غرفته ، لم تكن تغفل عيني عني أبدا إذا استدعته الرئيسة خلسة إلى غرفتها في الهزيع الأخير من الليل أحسن وضع المتاريس على الباب ، واغلاقه بكل ألوان الأقفال الصلبة ، ثم تسلل إلى غرفة الرئيسة ، و كان بقية الراهبات يعرفن بما بين رئيستهن و بواب الدير ، ولكن كان يغضضن الطرف عن تلك المخازي حتى تغض الرئيسة بدورها الطرف عن الخلوات السرية بينهن و بين أصدقائهن من أثرياء سان سباتيان ، في الحديقة الموحشة التي تقع في

ظهر الدير داخل الأسوار ، و كنت أرى هذا و لا أجسر على أن أتكلم ، فقد رأيت طفلة كانت تكبرني بثلاث سنوات ، تحبس في غرفة مظلمة إلى أن لقيت حتفها ، أنها تجاسرت ، وسبت الراهبات على ما يفعلن .

يوم الثامن عشر من مايو عام 1608 كان اليوم المحدد لدخولي سلك الرهبنة الميقت لأداء القسم و ارتداء الثياب التي لا تخلعها أبدا إلا عند الدفن .

قالت عن ذلك اليوم :

كانت رئيسة الدير تشرف بنفسها في قاعة الدير الكبرى على الاستعدادات الخاصة بالحفل الديني الرسمي لكل راهبة ، لتكون زوجة أبدية للسيد المسيح ، ر تعرف الرجال و لا تتقرب منهم .

قال رئيسة الدير :

كاتالينا ، تلك أقدس لحظة في حياة الراهبة ، يوم تقسم على البقاء طاهرة عذراء زوجة للسيد المسيح ، تلبس خاتمه و تكرس حياتها لخدمة مبادئه العظيمة ، ألست سعيدة يا ابنتي ؟

قلت كاذبة و أنا اداري ابتسامتي :

كل السعادة .

قالت :

عليك أن تنسي كما علمناك نوازع الجسد ، و رغبات القلب ، لماذا لا أرى في يدك كتاب الصلوات ؟

قلت لها :

لقد نسيته في غرفتي ، كي أقرأه يعد المراسم التي تتم في هذه القاعة لرسمي راهبة ؟

ستسر أنك ماريا كثيرا إذا علمت بأنك الآن في طريق الرب ، آه بالمناسبة يا كاتالينا ، لقد تركت كتاب الصلوات الخاص بي في غرفتي ، اذهبي من فضلك و آتيني يه ؟

و كيف أدخل و أنت تقفلنها دائما بالمفتاح ؟

قالت و في صوتها لهدة تحذيرية قاسية :

إليك مفتاح بابها ، أذهبي و لا ، لا تعبثي بشيء في الغرفة .

❖

لم يخطر ببال كاتالينا قط أن تتاح لها فرصة الفرار من الدير ، كانت تعرف أن البواب الفاريز مريض في غرفته قرب باب الدير ، و لكن القدر كان يعد لها ما لم تكن تحلم به .

تقول عن هذا :

طالما دعوت ربي أن يخلصني من هذا الدير ، بمعجزة من المعجزات ، و قد تحققت المعجزة ساعة فتحت باب غرفة الرئيسة ، أخذت كتاب الصلوات ، و هممت بالخروج ، فجأة ، رايت مفاتيح الدير كلها معلقة على الحائط ، لم أتركها ، أخذتها ، وضعتها في جيبي ، ثم فتحت درج المكتب ، ووجدت بعض النقود فدسستها في الجيب أيضا ، وعدت إلى القاعة مسرعة .

قالت لي الرئيسة

هل أعدت غلق باب الغرفة بالمفتاح يا كاتالينا .

أجل أيتها الأخت الرئيسة

لا شك أنك سعيدة اليوم يا كاتالينا ؟ لقد كنت في قمة سعادتي يوم رسموني راهبة .

إني سعيدة جدا ، و لكن ؟

و لكن ماذا ؟

لكني أشعر بالنعب ، لم أنم ليلة أمس .

طبعا من فرط الاثارة .

قضيتها الليلة كلها في الصلاة

قالت الرئيسة و هلا لا تدري ما كنت أدبر :

لا بأس في أن تحصلي في غرفتك على ساعة أو ساعتين من النوم حتى موعد الحفل ، اذهبي إلى غرفتك ، و سنوقظك في الوقت المناسب .

و عادت إلى غرفتها ، صنعت كياسا من القماش وملأته ببعض ما ظنت أنها ستكون في حاجة إليه حين تخرج إلى عالم الحرية .

ملأت الكيس ببعض الأقمشة ، و لم أنس المقص و الإبرة و الخيوط ، ، في هدوء تسللت نحو الباب الخلفي عبر حديقة الدنس التي تستخدمها الراهبات خلوات هادئة مع من يسربهم إليهن البواب " الفاريز " .

و حين أوشكت على أن أدير المفتاح في الباب ، و انطلق إلى عالم الحياة الحرة الطبيعية ، أمسكت بثوبي راهبة شابة ، و قالت لي :

أما أن تأخذيني معك ، و أما صحت ، فيهرع الجميع إلى هنا .

قلت في دهشة :

أينيس ، إنك راهبة منذ عامين ، كيف تهربين الان ؟

قالت :

اللعنة ، و من قال إنني أحببت هذه الحياة قط ؟ هيه أخرج معك أم أصيح ؟

اينيس ، إنك بثوب الرهبنة .

سأحصل على ما أريد من ثياب من صديق لي في سان سباتيان ، المهم أن تأخذيني معك .

❖

بينما كانت الراهبات جميعا في القاعة الكبرى يعددن حفلة زفافها الكنسي ، كانت هي و أينيس تتسللان عبر الباب الخلفي الذي فتحته في هدوء و حرص و تقول :

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله و أنا و لينيس نعدو عبر شوارع القرية المقفرة كي نصل في أسرع وقت إلى الغربة إلى لمجهول ، كنا ندعو الله ألا يرتاب أحد في أمرنا ، و كنت برغم لهفتي على الوصول إلى الغابة اتلفت خلفي لألقي نظرة أخيرة كارهة على الدير الذي أكل أجمل سنوات عمري ، أكل طفولتي و مراهقتي ، و كان الكيس الكبير يثقل لحظة بعد أخرى على ذراعي ، و لم أشأ أن ادعه لاينيس التي كانت دائما أخافها و أخشاها و أتوجس منها الشر ، بعد مسيرة ثلاثة أميال صرنا وسط أشجار الكستناء تخفي أشباحنا عن كل من يفكر في أن يطاردنا .

و انطلقت الفتاتان في رحلة إلى المجهول .. اينيس تبحث عن العاشق المأمول الذي وعدها بالزواج لينال غرضه ، و كاتالينا تبحث عن المجهول في ثوبها الرجالي الجديد، تبحث عن الحياة الحرة دون فجور و فسق ، تبحث عن الحلال ، و قد كرهت فيما كرهت صنف الرجال ، بل وعدت نفسها بأن تنتقم لشرف أمها ، أمام هذا الفاجر الذي يلهو كل مقدس .

و لم يكن الطريق سهلا ، مفروشا بـالورود ، إنـه طريـق ممهـد للخيانة و الغدر .

بداية جديدة

تلميذة دير انتجوا كاتالينا دي اروزو ، الشابة الفارسة التي حاقل تاريخها بالجريمة ، أهدت بلادها اسبانيا مستعمرة جديدة في أمريكا الجنوبية ؛ شيلي .

لقد فرت هاربة من جحيم الدير و فسوقه و دعارته ، كانت على وشك وسمها راهبة بالدير بعد أن بلغت الخامسة عشرة و هي السن التي تؤهل أي فتاة عادة للدخول في سلك الرهبنة ، و لكنها كانت تبغض الدير و أهله ، الدير الذي دخلته و هي طفلة في الخامسة من عمرها لترى فيه كل ما يشين الانسان الشريف ، من رئيسة الدير ابنة خالة أمها الفاسقة العاهرة ، التي اتخذت من حارس بوابة الدير عشيقا لها ، في عشه ، في حجرتها ليلا ، إلى تلميذات الدير اللاتي يمارسن البغاء في الحديقة الخلفية للدير و راهباته العاهرات .

فرت مع راهبة في العشرين من عمرها تدعي اينيس دي كاسيترو ، بعد سرقة مفتاح الباب الخلفي للدير .

و نقرأ في مذكراتها التي أمرت الكنيسة بحرقها ، و حرمت طبعها و تداولا :

منذ اللحظة الأولى بقرارنا من الدير البغيض ، أدركت أن أينيس ستكون عبئا ثقيلا علي ، فهي ثرثارة و كثيرة التباهي بصديقها الكونت ارماندو المقيم في سان سباتيان. تذكره دائما بمناسبة و غير مناسبة .

قالت لي :

أنه ينتظرني على أحر من الجمر ليتزوجني ،

قلت استوضح قصتها مع صديقها :

اينيس ، ولماذا لم يتقدم إلى اسقف سان سباتيان برغبته في الزواج منك ؟

كاتالينا ، أنت تعرفين إن هذا لن يحدث أبدا ، ما إن ترسم تلميذة الدير راهبة ، حتى تبقى عذراء ما بقى لها من عمر .

أعرف هذا ، كان في استطاعته أن يطلبك للزواج قبل أن يرسموك راهبة .

لم أكن قد عرفته في ذلك الوقت ، إنه دائم التبـرع للـدير ، و قـد جاء مرة لزيارة الدير فرآني ، سهل له البواب لقائي في حديقـة الـدير ، و من يومها اولع بي ولعا شديدا . و أصبحت عشيقته المفضلة .

كان في استطاعته وهو الثري قوي النفوذ في سان سباستيان أن يسربك من الدير ،

قالت أينيس بميوعة :

كان على وشك أن يقعل هذا حتى رأيتك و أنت تحاولين الفرار ، فانتهزت الفرصة .

و قالت كاتالينا بجدية صارمة :

اينيس ، طريقي ليس طريقك ، أنت ذاهبة إلى الشـمال ، أمـا انـا فلا مفر من الاتجاه إلى الجنوب عبر غابة نافار .

اعـرف ، أعـرف ، و لكـن يجـب أن نضـلل الشـرطة الـذين سترسلهم رئيسة الدير خلفنا ، إنها تعرف ما بيني و بن الكونت أرمنجو لذلك سيتعرصون لنا في طريـق سـان سيباسـتيان ، سنضـرب فـي هـذه الغابة و نختفي بها أياما حتى يهدأ الطلـب علينـا ، ثـم نفتـرق ، أنـا إلـى الشمال ، و أنت إلى الجنوب ، خبريني ، هل ستعودين إلى أهلك ؟

لا أهل لي فزوج أمي يشك في نسبي ، و يتهم أمي بعشيق لهـا ، منذ دخلت الدير ، و أنا في الخامسة لم يزرني أحـد ، أغلـب الظـن إنـي أمي و أبي قد ماتا ، أو لم يموتا ، فالبعد عنهم غنيمة .

و سألتها اينيس بسذاجة

إذن لماذا تتجهين إلى الجنوب ؟ هل ينتظرك أحد أحبائك ؟

قالت كاتالينا بعصبية : لا حبيب لي يا اينيس ، لقد كرهت دنيا الرجال ، بعدما رأيت في ذلك الدير من علاقات دنسة ، ثم مـن يتـزوج فتاة فقيرة لا حظ لها من الجمال و لا المال ؟

قالت اينيس بتهريج :

تعـالي معـي إلـى سـان سـباتيان ، فيـأمر الكونـت ارمانـدو أحـد فرسانه بالزواج منك ؟

نظرت إليها كاتالينا و هي تحاول أن تهدأ من نبرة صوتها :

أينيس يا عزيزتي ، إنني لا أنوي الزواج ، قلت لك إنني كرهت دنيا الرجال ، أحسب أن الله يعدني لمهمة غير الزواج البغيض و انجاب الأطفال الذين يتبرأ منهم الأزواج .

في غابة نافار القريبة من الدير ، و في أحضان أشجار الكستناء الشهية، خلعنا ثياب الدير ، ثياب الرهبنة ، لقد صنعت لي و ولاينيس من القماش سروالين من سراويل الرجال ، و قنيصين مناسبين .

كانت اينيس ماهرة جدا في التفصيل و في الخياطة ، لقد صنعت ملابسنا مما أخذناه من الدير .

و لعل هذا هو الشيء الوحيد الذي أفدته حقا من الدير ، كلا ليس الشيء الوحيد لقد أفدت شيئا آخر ، أفدت الحرص الشديد على الحرية ، تحت أقدام أشجار الكستناء ، أقسمت أن أتشبث بهذه الحرية ، و ان أقاتل دونها بلا ندم و بلا خوف كل من يحاول أن يحرمني منها مرة أخرى .

أدركت رئيسة الدير فرار الرهابة اينيس و التلميذة كاتالينا في يوم عرسها الكنسي ، و هي تكرر لراهباتها دون ملل في غيرة شديدة .

لتذهب كاتالينا إلى الشيطان فلم يتم تعميدها ، أما اينيس فلن أدعها تهنأ أبدا بالكونت ارماندو ، و سألقنها كل الدروس .

سافرت على الفور إلى قرية " فيرجارا " حيث قصر الكونت ارماندو في ضواحي سان سباتيان ، استقبلها الرجل الثري المرح ضاحكا :

ماذا ؟ الراهبة اينيس ؟ من قال يا سيدتي رئيسة الدير إنني أحبها ، أو إنني وعجتها بالزواج .؟

لقد قالت ذلك ذات يوم لإحدى زميلاتها ، ثم ، ثم إنني بيني و بينك يا كونت لن أثير لك أية مشاكل إذا كنت تأويها في هذا القصر ، إذا وعدت أن تتزوجا ؟ أنت تعرف أن هذا يخالف الطبيعة .

قبال الكونت بعجرفة و تعالي :

أؤكد لك أنها لم تلجأ إلي ، ولو جاءت لطردتها في الحال ، إنني لا أريد أن أدخل في صراع غير متكافئ مع الكنيسة الكاثوليكية ، و أقسم لك على أن هذه الراهبة لم تلجأ إلي

فهل تعدني بأن تقبض عليها و تسلمها إلى عمدة سان سباستيان فور التجائها إليك ؟

قال الكونت و هو يبتسم :

لا شيء يسعدني و يريحني من مطاردتها لي أكثر من هذا الذي تطلبين ، و لكن لي شرطا .

قالت رئيسة الدير بجدية :

و ما ذلك ؟

قال لها و كأنه يرجوها :

من المؤكد أنك ستتحدثين مع عمدة سان سباتيان عن فرار التلميذة التي فرت معها ، شرطي ألا تذكري للعمدة أي شيء عن علاقتي المزعومة بالراهبة اينيس .

قال الرئيسة و هو تبتسم للكونت :

لك ذلك يا كونت ، و آمل ألا يحرمنا هذا الحادث المؤسف من المنح الكثيرة التي اعتدناها منك .

ووفت الرئيسة بوعدها للكونت ارماندو ، فلم تذهب لمقابلة العمدة ، بل اكتفت بأن كتبت إليه رسالة رسمية قالت فيها :

سيدي العمدة ، يؤسفني أن أبلغك بأن احدى تلميذات الدير و تدعى كاتالينا دي اروزو قد تعرضت لحادث خطف في ظروف بالغة الغرابة ، و أرجو أن تتكرم بتوجيه رجالك غي أسرع وقت لمطاردة الخاطف أو الخاطفين و اعادة التلميذة المسكينة .

و بدأ البحث عن كاتالينا و خاطفيها

تقول عن ذلك فيما بعد .

لم أعرف ما حدث إلا بعد فارقتني اينيس متجهة إلى الشمال ، أما أنا فلم يكن أمامي إلا الاتجاه بسرعة إلى الجنوب في اتجاه فالارينـدا لأختفي في أحيائها الفقيرة الكثيرة حيث الحياة الصاخبة في عاصمة إسبانيا في ذلك الوقت ، دفنت في أرض غابة نافار ثياب الدير ، وقررت أن أهجر اسم كاتالينا إل الأبد ، و أن أغدو رجلا ، و أن أعيش حتى آخر لحظة من حياتي تجت اسم اخترعته اختراعا انطوان دي حوارداي .

و تابعت سيرها جنوبا ، في طريقها قابلت شابا يتسول لقمة العيش في قرى الوادي الخصيب ، سألها :

ما اسمك أيهال الفتى

قالت :

انطوان

قال ساخرا :

صوتك ساخرا كالنساء ، انطوان ماذا ؟

انطوان دي دواردیا

و إلى أنت ذاهب ؟

إلى الجنوب

إلى أين في الجنوب ؟

لا أدري ، قيل لي أن عمي يقيم في الجنوب ، فجئت أبحث عنه لأقيم معه بعد أن مات ابي .

هل معك نقود يا انطون ؟

كلا

ضحك الشاب و قال :

إذن تسول معي ، سيدهشك ما سوف تحصل عليه من التسول في يوم واحد ، هل يضيرك أن تمارس هذه المهنة السهلة في يوم واحد ، هل يضيرك أن تمارس هذه المهنة السهلة البسيطة و إلى أن تصل إلى عمك ؟ الأقارب لا يحبون الفقراء ، أدخل عليه حين تلقاه ملئ الجيوب بالمال .

صدقت ، و لكني لا أجيد المهنة .

سأعلمك ، لبدأ بهذه القرية التي تبدت لنا مداخلها ، من يدري ؟ لعل عمك يقيم فيها

قالت بسرعة :

لا ، لا عمي في الجنوب ، ربما في منطقة مورسيا.

و استبعد الشاب المسافة و قال :

ياه ، في مورسيا ؟ هل تنوي أن تقطع كل هذه المسافة على قدميك ، و مع هذا لو جمعت من التسول معي مبلغا مناسبا ففي

استطاعتك دفع أجرة العربات التي تقابلها ، هيا ندخل هذه القرية ثم نعود إلى الغابة

قالت :

ادخل أنت القرية و سأنتظرك هنا حتى تعود بما يجود به عليك الناس .

قال الشاب و قد استراب في الأمر :

عجبا ، و لماذا لا تريد يا أنطوان أن تدخل معي القرية ؟ انطوان أتكون هاربا من الشرطة و لا أدري ؟

قالت في جسارة : انا ، و لماذا أعرب من الشرطة ؟

من يدري ، لعلك اشتركت في خطف تلميذة دير الانتيجوا و اصطنعت الجهل .

ماذا ، هل خطفت تلميذة من الدير ؟

قال الشاب :

هكذا يقولون ، و شرطة سان سباتيان تقلب الدنيا بحثا عن خاطفيها ، لقد رأبتهم منذ ساعة يدخلون القرية .

تماسكت و هي تقول :

مالنا و لهم ، المهم أن أتابع السير إلى الجنوب .

قال الشاب :

سأساعدك يا انطوان للتغلب على متاعب الرحلة حتى أقربك من عمك في مورسيا ، و لكن ليس قبل أن احصل من القرية على بعض النقود ، انتظرني هنا إذا أردت ، أو تعالى معي إذا كنت لا تحب الوحدة ، فقد يطول وقت العمل قليلا في حواري القرية .

و تركها الشاب المتسول جواريز ساعة أو بعضها ، ثم عاد سعيدا وهو يقول ضاحكا :

أنت شاب مبارك يا أنطون ، انظر إلى ما جمعت ، الكثير من المال ، و الطعام .

و نظرت إل ما بكفه من نقود معدنية ، و قالت

ياه ، حصلت على كل هذه النقود يا جواريز

قال الشاب متباهيا بقدرته على التسول :

لولا خوفي من الشرطة لجمعت أكثر من هذا ، تصور يا أنطوان إن استجوبوني ظنا منهم إنني ضالع في خطف كاتالينا .

و اضطربت ، و لكنها تماسكت ، وسألت :

كاتالينا ، و من كاتالينا ؟

تلميذة دير انتجوا المخطوفة ؟

قالت في خبث المخادعة :

بصراحة هل اشتركت في خطفها يا جواريز ؟

و أنكر الشاب التهمة على الفور .

أنا لم اقترب قط من منطقة سان سباتيان .. قال أحد رجال الشرطة أنه راني أتسول في القرى البعيدة عن سان سباتيان منذ شهرين ، و هذا صحيح ، أنهم مجانين هؤلاء الرجال ، يستوقفون كل غريب عن المنطقة و يستجوبونه في غلظة.. ما لك مصفر الوجه هكذا يا أنطون

ذلك لأني متعب و جائع جدا .

إذن لنتناول بعض ما معنا من طعام عند شاطئ النهر ، هل تعرف هذا النهر يا أنطوان ، أنه أصفى نهر في اسبانيا كلها ، اسمه نهر ايجا .

و جلسا على شاطئ النهر الهادئ الرقراق ، و تنالا الطعام ، كان جواريز المتسول الشاب شديد المرح محبا للفكاهة ، نزل إلى الماء يسبح و يلهو ، و أخذ يصيح بها ، وهو في مرحه و سعادته .:

أنطوان ، لماذا لا تخلع ثيابك و تنزل إلى الماء ؟ الماء هنا منعش جدا

أنا لا أجيد السباحة .

و من قال إنني أجيدها ؟ القاع فريبة جدال ، ألا تراني أقف على قدمي في الماء ، انظر ، لماذا تدير راسك يا أنطوان .

و شرع يقهقه و يقول :

ما أتعسني ، و قعت على رفيق خجول كالنساء ، هيل ، أخلع ثيابك و أنزل إلى الماء

قالت في شدة حين رأته مقبلا نحوها خارجا من الماء .

قلت لك إنني لا أريد ذلك .

و حاول الشاب أن يلقي بها في الماء وهو يقول :
أ يجب أن ألقي بك في الماء ، و هل يحلو اللعب و العبث إلا في هذه الساعة عند الغروب ؟
صاحت في رعب:
لا تقترب مني ، قلت لا تقترب ، ألا تستحي ؟ ألا تدرك إنك عار
و ضحك الشاب و قال في دهشة
و ما في هذا ؟ هل تريد يا أنطوان أن أنزل إلى الماء بثيابي ؟ هيا ، هيا ، هات يدك
و أمسك بها يريد أن يلقي بها في الماء معه , فقاومته في عنف .
ابتعد ، ابتعد ، لا تمسني أيها التعس ، لقد مزقت فميصي .
و تمزق قميصها ، بدا له صدرها الناهد كأنه حبات البرتقال ، فقال في ذهول :
يا للسموات ، فتاة ؟ من كان يظن ؟ الان أدركت كل شيء ، أنت تلميذة الدير التي يبحثون عنها .
و بكت
أرجوك يا جواريز ، لا تشي بي
إذن لا يجب أن نبقى هنا ، أنهم يبحثون عنك في كل مكان ، فررت إذن و لم يخطفك أحد ؟ لا تبكي يا مسكينة ، أنت إذا كاتالينا التي يتحدثون عنها .
أتوسل إليه ، اذهب في طريقك و لا تقل إنك قابلتني .
انتظري حتى ارتدي ثيابي ، و بعدها نتدبر أمرنا ، أمرك بالطبع ، أما أنا فليس لي مشكلة مع الشرطة .

أول الطريق

دخلت دير الانتجوا قرب سان سياستيان في اسبانيا و هي طفلة في الخامسة من عمرها .

عزلت في هذا الدير عن العالم كله بعد أن تنكرت لها أمها ، وقال لها من ظنته أباها في قسوة شيطانية :

لست أباك ، أسألي عنه أمك مارينا الفاجرة .

و رأت في الدير ما يبغض اليها الناس جميعا ، الرجال و النساء على حد سواء تقول :

رأيت في الدي الراهبات يتنكرن لما أقسمن على صيانته ، عذريتهن ، رأيت رئيس الدير و هي ابنة خالة أمي تثري ثراء فاحشا من الاتجار بالرقيق الأبيض ، بتلميذاتهن اللاتي تعدهن لارتداء الثوب الأسود الفضفاض ، و بالراهبات اللاتي ارتدين ذلك الثوب و اختفين تحته بكل ما في قلوبهن من رذائل ، رأيتهن يحبسن تلميذة في التاسعة من عمرها في قبو مظلم بالدير و يحرمنها من الماء و الطعام إلى ان صارت طعاما للفئران ، و ما أذنبت المسكينة ، كل ما فعلته هو أن كتبت ورقة إلى عمدة مدينة سان سباتيان بما يحدث في حديقة الدير الخلفية من جرائم خلقية .

و صبرت على مضض ، و اظهرت الخضوع و الطاعة ، تقول :

ما مر علي يوم لم أفكر فيه في الفرار من الدير ، لقد كرهت دنيا الرجال مما رأيته ، و امتلأ صدري بالحقد على الناس جميعا ، و غدا قلبي كالحجارة أو أشد قشوة ر لأعرف الرحمة ، ثم جانت ساعة الخلاص . يوم الاحتفال برسمها راهبة ، بعد أن بلغت الخامسة عشرة سرقت مفتاح الباب الخلفي للدير ، و فرت هاربة و معها راهبة تدعى اينيس

بعد يومين من فرارنا تركتني اينيس لتوافي صديقا لها هو الكونت " ارماندو " علمت فيما بعد أنه تنكر لها ، و أراد أن يسلمها إلى

السلطات الكنسية ، فقتلته في فراشه ، ثم قتلت نفسها بجواره . و تركت رسالة بجوار الجثتين :

هذا جزاء كل خائن .

أما هي فتابعت فرارها ، و شرطة سان سباتيان تبحث عنها و تطاردها ، خلعت ثياب الدير و صنعت مما سرقت من غرفة الرئيسة قميصا سروالا ، و هجرت أنوثتها ، و اسمها القديم " كاتانيا د ي اروزو ، و صارت أنطوان دي لا جوريا .

لا أدري لم خطر هذا الاسم على ذهني حين فاجأني الشاب المتسول الذي قابلته في غابة نافار بالسؤال عن اسمي ، و قد ظنني رجلا مثله ، كان يريد أن يشاركني معه في مهمة التسول ، ولكن سوء حظه أن يكتشف إنني فتاة كاملة الأنوثة .

عرف سرها بين شهقات البكاء وتوسلاتها إليه ، أن يحفظ سرها ، و أن يظهر الاشفاق عليها ، و عرض كل ألوان المساعدة الممكنة ,

صدق كل قلته له عن إنني أبحث عن عمي في منطقة مورسيا بجنوب الأندلس ، و لكني أدركت من نظراته أنه يطمع في أنوثتي و يريد أن ينتهز فرصة ضعفي و خوفي منه ، بل أدركت أيضا أنه قد لا يتورع إذا لم ألبي طلبه على ما يريد من جسدي الفائر أن يبيعني للشرطة التي تبحث عني في كل مكان ، أغريته بالبقاء في الغابة ليلة أخرى ،

قال لي :

ألا تخافين يا صغيرتي من أهوال الغابة إذا جاء الليل ؟ ألا تخافين من صيحات الوحوش المفترسة ؟

فقلت له في غاية ساذجة :

ما اسمك الحقيقي إذن ؟

كانوا يدعونني في الدير كاتالينا ، أما اسمي الحقيقي فهو انطوانيت دي لاجورديا .

قال لها بسخرية :

لا تقولي إنك تنتمين إلى اسرة لاجورديا .

كانت أمي تعمل خادة عندهم في مورسيا و اعطتني اسم لاجورديا .

ضحك و قال :
آه أنت إذن ابنة أحد " أسياد أمك "
ربما ، لا أعرف ، كل ما أعرفه إنني انتمي إلى أسرة لاجورديا ، و أن امي اسمتني انطوانيت .
و استمر في سخريته :
لا غرو أن قلت من قبل أن أعرف حقيقتك أن اسمك انطوان ، إنك جميلة يا أنطوانيت .
أنت إذن أعمى يا جواريز ، ليس لي من جمال الأنوثة أي نصيب .
قال لها مستفسرا :
إذن بحق السماء لم فررت من الدير ؟ هل كنت على علاقة بشاب قبل دخولك الدير ، هل اغتصبك ذلك الشاب ؟
أيها الأحمق ، لقد زجوا بي في ذلك الدير التعس و أنا في الخامسة .
أنطوانيت ، إذا لم تكوني مرتبطة بأحد ، فلم لا تجعليني حبيبك ، سأتسول من أجلك ، و لن أجشمك متاعب البحث عن لقمة العيش
قلت أخفى عنه ما أعده له :
سنفكر في هذا فيما بعد ، المهم الآن هو أن نختفي في الغابة .
قال و هو يضحك :
كما تشائين يا حمامتي الصغيرة .

♥

و اشعل نارا داخل الغابة ليعد لنا ارنبا بريا صاده بالفخاخ التي يحسن استخدامها ، و غدت نظراته إليّ وهو يعد العشاء نظرات ذئب جائع نهم يريد ان يفترس فريسته ، غافلته ، و أخرجت المقص من الكيس الذي كان معي ، ثم غرسته في ظهره ، مات لتوه ، لم أر نظرات عينيه و هو يفارق الدنيا على غير ما توقع ، أخذ كل ما كان معه من مال ، ثم دفنت الجثة في الغابة ، وتوغلت فيها ناحية الجنوب كما كنت أريد . .
كانت تلك أولى خطواتها نحو الجريمة ، تقول :

كنت أقتل أحيانا بلا سبب ، مجرد رغبة عنيفة في اظهر بغضي للناس جميعا ، و كنت قد ورثت عن أبي رغم انكاره لبنوتي طبعا ناريا إذا اشتعل بالغضب لا يبالي بما يفعل ، لم اكن أقصد " مورسيا " كما زعمت للمتسول الشاب الذي فتلته ، بل انحرفت غربا نحو العاصمة فالادوليدا ، كانت كل خطوة إلى الغرب تزيدني أمنا و طمأنينة ، و لم ألبث أن نسيت أولى جرائمي ، نسيت المتسول الذي آمن لي فأرديته قتيلا في ساعة خوف ، لم أشعر بالندم على أي حال ، لم أندم قط على جريمة ارتكبتها ، حين بلغت مدينة فيتوريا اشتريت بما سرقت من نقود المتسول ثيابا جديدة و سيفا بحزام أنيق ، أردت أن أبدو كشبان المدن يتجولون في الشوارع ، و يؤمون الحانات متباهين بثيابهم الأنيقة و سيوفهم الطويلة التي توشك أطراف أغمادها أن تحك بالأرض ، ثم تابعت السير على قدمي ، كنت أريد أن اشتري جوادا ، و لكن ما بقي معي من نقود المتسول لم تكن تكفي لتحقيق هذه الأمنية ، دخلت حانة على الطريق لأقضي فيها الليلة استريح ، ثم أتابع السير ، جلست على العشاء ، على المنضدة المواجهة جلس بعض لرجال كثيري الصخب يحتسون أقوى أنواع النبيذ ، صاح أحدهم :

أنت أعجب فارس رأيته في حياتي ، أ تحسن حقا استخدام هذا السيف الطويل ؟

اصطنعت الخشونة ، و قلت بوقاحة :

أ تريد أن تجرب ؟ سترى من يقتل الثاني في مبارزة عادلة .

و قام الرجل ، و جاء نحوي ضاحكا وهو ينظر إليّ، ثم قال في صوت ودود :

إنني لست من هواة اراقة الدم إليها الفارس .

قلت في خشونة مفرطة :

إذن لماذا تسخر مني ؟

قال :

لأنك أول فارس يتناول عشاءه دون نبيذ ، أراهن إنك ستفقد الوعي مع أول كوب ,

قلت

كل ما في الأمر إنني لا أحب النبيذ ، أنه شراب خفيف .

ضحك الرجل و قال
إذن فاشرب التورال إننا نستورده من فرنسا ، أنه أقوى شراب هنا .
ثم نادى صاحب الخان :
حوزيه ، جوزيه ، قارورة من التورال على حسابي للفارس الغريب .
و جاء جوزيه بقارورة التورال و صب لي كوبا مترعا ، تحاشيت أن أقربه ، ولكن حوزيه صاحب الخان لم يدعني في سلام ، قال للرجل الوجود المرح :
ما لصاحبك يا الفاريز ، لا يقرب التورال ؟ أشرب يا فتى ، فلست أدري لم يتبرع لك الفريز بثمن قارورة كاملة من التورال العنيف ، أشرب .
اصطنعت الشجاعة ، مددت يدي لأول مرة في حياتي إلى الخمر ، ما إن صببت في فمي جرعة من التورال حتى اشتعل جوفي بنار جهنم ، بل نار جهنم أخف و طأة .
و ضحك الفاريز ، وقال صاب الخان ساخرا :
أنت الذي جلبت هذا على نفسك ، لماذا بالله لم تقل إنك لم تقرب الخمر من قبل ؟
و كابرت و أنا أقاوم النار في جوفي :
من قال هذا ؟
ضحك جوزيه للرجل الودود :
الفاريز، رأفة بالغريب ، أشرب أنت التزرال أما أنا فسأقدم له النبيذ مجانا ، لا عليك يا فتى ، و لا تحمل ضغينة لصديقنا الفاريز أنه الشهامة مجسمة ..
لم أنس هذه اليد للرجلين ، ثار الفاريز ابن الخمسين صديقا منذ تلك الواقعة ، يرعى خطواتي الأولي في البحث عن عمل ، ولم أحزن على موت أحد كما حزنت على موته في مغامرتنا العبثية في عيور جبال الأنديز ، بقيت بجواره إلى ان لفظ أنفاسه الخيرة ، و أبيت رغم خطورة سهام الهنود إن أن أدفنه حيث صرع ،أنا حوزيه ، فقد تذكرته يوم شكلت أول عصابة بي .

و دعونا لا نسبق الأحداث ، قضت كاتالينا أو على الأصح أنطوان دي لا جوردبا ليلتها في ذلك النزل الصغير ، لم يشك أحد في أمرها ، و كيف يشكون ؟.

في الصباح قال لها الفاريز :

انطوان ، من الواضح إنك تبحث عن عمل ، إنك فتى طيب ، و رقيق رغم اصطناعك للغلظة ، أ تحب أن أجد لم عملا في المدينة ؟

سألته كاتالينا

أعمل ماذا ؟

قال :

إنك فيما يبدو حصلت على تعليم مناسب .

أجل ، قضيت في مدرسة " يورجوي " خمسة أعوام ، إني أتقن قواعد اللغة الاسبانية ، و لي المام باللاتينية .

صاح الفاريز فرحا :

اللاتينية أيضا يا أنطوان ؟ إنك مثقف إذن ؟ يجب إذن أن نبحث لك عن وظيفة سكرتير لأحد كبار القوم ، ماذا لو حدثت الأسقف في أن يلحقك بالعمل في مكنبه

قلت خائفا :

لا ، لا أفضل العمل في مكان آخر .

ضاحكا قال الفاريز :

أنت مثلي إذن لا تحب الأساقفة ، حسنا ، هناك التاجر " افاريا دي عيرديا " أنه رجل بالغ الثراء و أمين جدا ، و لاشك أنه سيرحب بك كسكرتير له .

و بعد زيارة لقصر التاجر دي هيرديا في فالادوليد صارت كاتالينا أو انطوان دي لاجورديا سكرتيرا محترما للتاجر الكبير .

♥

قال عن هذا :

بعد أسابيع قليلة من العمل صارت لي غرفة أنيقة في مبنى ملحق بالقصر وجواد مطهم ، و كثير من السترات و السراويل الملونة ، وصرت أثيرا عند كل أفراد أسرة سيدي الطيب ، ذات يوم ذهبت معه إلى ضيعته في قرية " مدينا " في أجمل هيئة ، و السيف الطويل في

حزامي المزين بالنقوش الملونة يحك الأرض أثناء سيري ، بعد تناول الغداء خرجت مع نافارو سيدي نتجول في بستان الضيعة ، قال لي نافارو الذي كان يحب الممازحة و المرح السعيد :

أقسم يا أنطوان إنك لا تحسن استخدام هذا السيف الطويل .

قلت بصوت متوتر :

و ما الذي يدعوك إل أن تقول هذا يا سنيور نافارو ؟

ضحك نافارو و قال :

يدعوني إلى ذلك أمران : ما سمعت من الفاريز صديق أبي ، إنك كدت تموت من جرعة التورال ، و الثاني هو أسلوبك في تثبيت السيف في الحزام ، لو كنت فارسا كما تدعي لما أبعدت مقبض السيف عن متناول يدك ، هل رأيت في حياتك فارسا يثبت مقبض السيف عند ظهره .

و لا أدري لماذا أغضبني جدا ما قال نافرو الشاب المرح ، فقلت في حدة :

إذا أردت أن تعرف مدى اجادتي لألعاب السيف ، فليس أسهل من ملاقاتي في الساحة خلف الضيعة.

قال نافارو

لا تكن على هذه الحماقة يا أنطوان .

و اشتعل الغضب الناري الذي ورثته لسوء حظي من أبي ، و قلت في حماقة :

إني أتحداك .

أنت مجنون ، دون ريب ، ألم يقولوا لك إنني أمهر الفرسان في اللعب بالسيف .

أنا امهر منك

لننس الأمر كله إذن ، لم اكن أظن إنك على هذه الحماقة ، و ليتني نسيت الأمر كما أراد نافارو ، و لكن الغضب كان قد أعمى بصيرتي ، فقلت في حماقة أشد :

أ لم تسمع ما قلت ؟ إني أتحداك ؟

ساخرا قال تافارو

لا مفـر إذن مـن أن أقبـل التحـدي ، يؤسـفني أن يخسـر أبـي سكرتيرا ممتازا مثلك ، ليكن الصراع في الغابـة بعيـدا عـن الضـيعة ، فلا أحب أن أقتلك على مشهد من أهلي ، ثم أردف ساخرا .

في الغابة استطيع أن ادفنك على الأقل في سكون

و تذكرت المتسول الـذي دفنتـه فـي غابـة سـان سـباتيان بعـد أن طعنته في غدر بالمقص في ظهره وهو راقد يحلـم بأوقـات سـعيدة مـع التلميذة الراهبة الفارة من الدير ، و اضطربت أشد الاضراب ، وتمنيت أن يعجل نافـارو الشـاب المـرح عـن سـخريته ، و يعتـذر عـن اهانـه ، و لكنه لم يفعل بل أصر على أن يحدد موعدا للمبارزة .

غدا في الغابة قبل الغروب .

النهاية

كاتالينا دي اروزو ، الاسبانية التي أوشكت أن تخدع التاريخ وتدخل في سجلاته في ثياب فارس مغامر اكتشفت مجاهل شيلي في أمريكا الجنوبية ، تحت اسم أنطوان دي لاجورديا .

تقول عن ذلك الحادث الذي حول تماما مجرى حياتها :

لم أنم ليلتها ، ماذا أفعل و أنا لا أعرف ألف باء استخدام السيف الطويل الذي وضعته في حزامي متباهية به ؟ و مع هذا فقد ذهبت في الموعد الذي حدده نافارو ، تلفت حولي في الغابة فلم أجد أحد سواه ، سألته عما إذا كان قد جاء معه من يشهد المبارزة فقال :

يا عزيزي أنطوان، إنني لا أقوى أن أقتلك ، و لكني سأكتفي بصلم أذنيك ، هيا استعد .

على الفور جثوت عن أقدام نافارو باكية ، فقال في هشة مرحة :

ما هذا يا أنطوان ؟ لم تفعل هذا أيها المغفل ؟

نافارو ، أتوسل إليك أن تكتم سري الذي أخفيه عن الناس .

أكتم سرك ؟ أي سر هذا يا أنطوان تخفيه ؟

في اضطراب واضح قالت :

إنني ، إنني لا أحسن استخدام السيف ؟

فضحك نافارو و قال :

أيها التعس ، لماذا كنت تصر على التحدي إذن ؟ كان من المحتمل أن فعلت هذا مع أحد غيري أن تقتل في أول جولة .

إنني لم استخدم السيف في حياتي قط ، إنما أردت التباهي به كمل يفعل بقية الفتيان الفرسان .

أنت إذن يا صديقي أخيب فتي في فالادوليد

بل على طول اسبانيا و عرضها ، نافرو بحق السماء علمني كيف استخدم السيف ، و عدني ألا تذكر هذا لأحد .

و . علمها نافارو كيف تستخدم السيف ، كانت تخرج معه إلى الغابة كل يوم ، و تتعلم منه أسرار المبارزة ، كانت ذكية خفيفة ،فحذقت أساليب القتال بالسيف في سرعة معجبة .

تقول عن هذا :

علمني نافارو أشياء كثيرة أخرى غير اللعب بالسيف ، و ليته ما علمي شيئا ، علمني المقامرة ، فادمنتها رغم مواردي البسيطة ، ثم من فرط اعجابي به أدمنت الشراب أيضا ، و أصبح الشراب لا يؤثر بي ، و كان في طبيعته شر موروث من أمه ، كانت تكره الناس مثلي، و تنتهز أي فرصة لتقتل من يقف في طريقها ، فصرت و إياه مبعث رعب لمن يلقيه سوء حظه في طريقنا ليلا ، نقتل و لا نبالي، و لما طردني أبوه من خدمته لم أحزن ، فقد كان لي دخل آخر ، كان نافارو قد ألف صحبتي ، و إن لم يكتشف قط إنني فتاة ، فقد حرصت على ألا يبدو مني ما يبدو من النساء عادة ، ثم جاءت ليلة اتهمني فيها أحد المقامرين بالغش في ورق اللهب ، وقد كنت أفعل هذا عادة فصفعني ، دعوته إلى المبارز في الغد فكان أول ضحاياي في معركة متكافئة ، و الثاني بعد المتسول الذي اغتلته في الغابة .

لم يعد أحد في فالاوليد إلا و يخشى شرور الفتى أنطوان لم يدر قط في بال أحد أن هذا القاتل الشرس الجسور الذي يعب الخمر عبدا دون أن يفقد اتزانه هو الفتاة كاتالينا دي أروزو تلميذة دير الانتجوا الهاربة .

و قرر الناس في أحياء فالادوليد التجارية الاستعانة بقاتل محترف ، للتخلص منها ، اطلعها نافارو على ما يبيت الناس لها ، و نصحها بالاختفاء من فالادوليد ، قال لها :

شتوراتي المحترف لا يفلت فريسته ابدا ، و لقد دفع له الأهالي مبلغا كبيرا من المال للتخلص منك.

قالت :

نافارو ، انطوان لاجورديا لا يفر أبدا ، إني أرقبه منذ جاء المدينة ، أترك علي الباقي ، و سوف أجعله عبرة لأهل فالادوليد .

قال نافارو بجدية واضحة :

إذا لم تقتله في مبارزة شرعية ، و أمام الشهود ، أمر حاكم المدينة بشنقك .

قالت بسخرية :

سأقتل الرجلين ، إذا لم يكن بدا من ذلك .

كانت ترقب القاتل المأجور شتوراتي ، تعد عليه حركاته و سكناته

تقول عن تلك الواقعة المثيرة :

تسلق التعس ذات ليلة جدار البيت الذي أقيم فيه ، لم يكن يدري إنني كنت مستعدا لملاقاته ، و غدراتي في يدي :

أصابته الطلقة في رأسه فهوى من حالق في صوت مدو ,

و انتشر الخبر في الصباح ، و تجمهر الناس حول الدار .

و صاحوا في عضب

اقبضوا على القاتل انطوان

خذوه إلى السجن

هذه المرة لا مهرب له من الشنق .

لم يعد أمامي سوى الفرار بسرعة ، أعد لي جوزيه جوادا عند ظهر البيت ، فقفزت إلى ظهره من الطابق الأول ، و انطلقت جنوبا حين أوشكوا على أن يلحقوا بي لجأت إلى الكنيسة كان الالتجاء إلى الكنيسة هو الوسيلة المثلى لم يريد أن يفر من جرائمه في تلك الفترة من تاريخ اسبانيا ، لم يجس أحد على أن ينتزعني منها ، أدركت عندها إنني لن أجد لمشكلتي حلا إلا بالالتجاء إلى الكنيسة ، ارتكبت جريمة جديدة ، و عدت من جديد بعد أن هدأت الضجة إلى ممارسة نشاطي الارهابي في مينة فالادوليد .

ثم وقع التغير المثير في حياتها ، فقد طرد التاجر دي هيرديا وله بعد أن اتهم باغتصاب ابنة جاره الصبية الصغيرة الجميلة ، ذات الشعر الذهبي ، و العيون الزرقاء ، و الوجه المنير كقمر السماء في تمامه ، فلحق بي في المخبأ الذي أعددته لنفسي في ضاحية ارتاريا قرب فالادوليد ، قال لي :

أنطوان لم تعد اسبانيا بالمكان الأمن لنا يا عزيـزي ، إذا بقينـا ، فستصل إلينا أيدي الشرطة في أي وقت .

قلت له ضاحكا :

فماذا تقترح أن نفعل ؟ نغادر إسبانيا ؟ أ هذا معقول ؟

قال و قبد لمعت عيناه :

أجل نغادر اسبانيا ، و هذا هو الحل لوحيد المعقول ، سافر معي يا أنطوان .

قلت له ساخرة :

إلى اين ؟

قال بجدية

إلى بيرو

و سألته مستغربة :

و أين بيرو هذه؟

في أمريكا الجنوبية ، إنها مستعمرة اسبانية اكتشفها بيزارو منذ مائة عام ، ستلتحق كبحارة في أسطول الكابتن لويز فوجاردو أنه ذاهب في حملة عسكرية جدبدة لاكتشاف المنطقة الواقعة أسفل بيرو .

قلت له خائفة :

نافارو ، يقولون أن الهنود الحمر هناك يحرقون الأسرى أحياء ، ثم لا أنا و لا أنت نعرف شيئا في الملاحة .

قال نافرو :

سنتعلم يا أنطون ، الكابتن فوجاردو لم يطلب الخبرة فيمن يتطوع للعمل على سفنه ، سنتعلم يا صديقي ، و سنعود من بيرو أثرياء ، و قد تروق لنا الحياة هناك ، فنغدو من عليه القوم .

❖

و التحقنا بأسطول فوجاردو الذاهب إلى بيرو لإخضاع القبال الهندية المقيمة في جنوب غرب القارة الأمريكية .

اقنعت صديقي القديمين الفريز الذي اختفى بي في أول يوم دخلت فيه فالادوليد جاهلة جائعة خائفة ، و جوزيه خادم الحانة التي بت فيها أول ليلة في العاصمة ، اقنعتهما بالتطوع مثلنا في أسطول فوجاردو

و تعلمنا على سفن الحملة كل ما لم يخطر على بالهم .

تسلقت الصواري في الليلة الممطرة العاصفة ، و نشرت الأشرعة تحت سماء الأطلسي الصافية ، و كان الفاريز برغم سنواته الخمسين أشدنا عزما على أداء عمله تحت الريح و المطر في الليالي العاصفة، عند شواطئ بنما حبت عاصفة شديدة دفعت السفينة التي أعمل عليها و أصدقائي إلى الصخور فحطمتها ، غرقت بسرعة مثيرة ، و لكني ورفاقي كنا متماسكين بالواح الخشب المتناثر في ميه المحيط ، فنجحنا في الوصل إلى الشواطئ الآمنة سباحة ، كان من الناجين بحار سيء الخلق كثير الشجار ، حين بلغت الشاطئ ابتعدت عنهم جميعا لأنام آمنة في الصخور البعيدة ، لاشك إنني نمنا كلنا طويلا ، و استيقظت رأيت نافارو عند رأسي ، قال لي في لهجة حافلة بالعتاب :

أنطوان ، لماذا لم تخبرني في أول صداقتنا أنك فتاة ؟ لماذا كذبت علي ؟

صحت مروعة :

نافارو ، كيف عرفت ؟

انظر إلى ثيابك الممزقة .

يا إلهي ، و هل أدرك ذلك أيضا البحار الذي نجا معنا ؟

كلنا أدركنا هذاحين جئنا إلى هنا لنوقظك . لا خوف من الفاريز و جوزيه ، و لكن البحار هنريكو سيذيع الخبر على كل من نقابله بعد ذلط .. أين هو ؟

قال نافارو :

توغل في الغابة بحثا عن بعض الفاكهة .

قلت من فوري :

نافارو ، أبق هند الشاطئ مع الفاريز و جوزيه ، سأعود إليكما بعد لحظات .

و دخلت الغابة وراء البحار " هنريكو " رآني فطمع في ، و أراد احتضاني ، استسلمت في خبث له ، ثم فاجاته بطعنة في قلبه ، فسقط مكانه ميتا ، و عدت إلى أصدقائي الثلاثة .

قال لي نافارو :

لقد سمعنا صرخة مدوية ، هل قتلته ؟

أجل ، لقد قتلته و حفظت سري معكما
قال لي الفاريزو الصديق القديم :
ما اسمك الحقيقي يا بنتي ؟ و لماذا تختفين في زي رجل .
قلت له :
تلك قصة طويلة ، و لكني آمل لما بيننا جميعا من صداقة أن تنسوا أن معكم امرأة ، سأبق إلى الأبد أنطون ، أما اسمي القديم فقد نسيته تماما .
قال الفاريز :
حتى لو كنت تذكرينه ، فأنت الآن كما كنت دائما انطوان دي لاجورديا ، لابد ان لك دوافعك الخاصة لهذا ، فلن نثقل عليك بالسؤال ابدا ، هيا يا رجال ، لنشيد لنا كوخا صغيرا إلى ان تمر بنا سفينة تحملنا إلى بيرو ,
و بلغوا بيرو على سفينة اسبانية عابرة ، و التحقوا من جديد بجيش فوجاردو الذي كان قد وصل إلى مدينة ليما ليتخذها منطقة وثوب إلى جنوب القارة عبر شيلي، ولم تكن مجاهلها قد اكتشفت بعد ، أبلى انطوان في الحروب المتصلة مع الهنود بلاء دمويا حفظه له فوجاردو الذي كان معروفا بقوته الوحشية ، قال لرجاله قبل هذه الرحلة الخطيرة من الغوص الاستعماري لشيلي :
إننا مقدمون على رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ، ستضطر في معظم المراحل إلى تسلق جبال الانديز ، و هي جحيم ثلجي حقيقي ، لن يتمكن من عبور تلك الجبال الرهيبة سوى الشجعان الأقوياء ، فمن يجد في صدرة ذرة من التردد فليبق هنا في ليما :
قلت لصديقي الفاريز :
الفاريز ، أنت يا صديقي في الخمسين ن أبق هنا في ليما حتى نعود إليك .
ضاحكا قال الرجل المرح :
إنني أقوى منك يا انطوان ، ثم ، من يكون في عونك إذا خارت قواك .
قالت ضاحكة :

أنت عنيد دائما يا الفاريز ، حسنا ، أنـه ليسـعدني حقـا أن يكـون أبي الروحي قربي في الملمات .

و بدأت الحملة مسيرتها الوحشية ، يحرقون القرى التي يمرون بهـا ، و يبيـدون أهلهـا بـلا رحمـة أو شـفقة ، إبـادة شـاملة و نـهائيـة ، و حين اعترضتهم سلسلة جبال الأنديز لم يتردد أحد في التسلق .

تقول عن تلك الفترة من حياتها :

بدأ عذاب تسلق أعتى سلسلة جبال في العالم كلـه ، المنحـدرات المستقيمة الخادعة التي يتساقط الرجال منها صـرعى لتـتحطم عظـامهم على الصـخور الناتئة المدببة انهيارات الثلوج التي تجـرف معهـا الخيـام و المعدات ، العواصف الثلجية التي تصيب الأطراف بما يشبه الشلل ، مـات الكثيـرون ، و فقـدنا المـدافع الثلاثـة التـي جاهـدنا غـي حملهـا لاستخدامها في ابادة القرى خلف الجبال و كان الكابتن فوجـاردو فائـد الحملة يرمقني بإعجاب ، فما اخترنا مكانا مستويا الإقامـة بـه ليـوم مـن الراحة حتى قال لرجاله :

إننـي لـم أرى أحـدا فـي مثـل شـجاعة و بطولـة أنطـوان دي لا جواردیا ، لهذا فإني أعينه قائدا مساعدا للحملة برتبة كابتن .

و حين بلغوا القمة الشماء ، لم يكن قد بقى علـى قيـد الحيـاة مـن الحملـة التـي بـدأت مسـيرتها مـن ليمـا بأربعمائـة رجـل سـوى مائـة و عشرين فقط .

مات الفاريز من فرط مـا بـذل مـن جهـد لا يحتملـه سـنه ، كنـت بجانبه لحظة احتضاره ، فأغمضت عيني الرجل الوحيد الـذي أحببتـه ، كانت عائم الرجال قد تراخت بعد أن سقط الكابتن فوجاردو فجأة ميتا ، و بعد أن فقددوا المدافع و كثيرا من أسلحتنا .

و قال أحدهم يقترح العودة :

لقد هلك الكثيرون ، و إذا خبطنا إلى أودية شيلي فلن نتمكن بهذا العدد القليل من الرجال من أن نصمد سـاعة واحـدة فـي وجـه الهنـود ، سيسـتقبلوننا بالسـهام المسـمومة و الحـرب التـي تخطـئ هـدفها ، لهـذا فالجميع يا كابتن دي لاجواردیا يريدون العودة إلى ليما .

قلت لهم في عنف :

ماذا نعود بعد أن بلغنا قمم الانديز الرهيبة ؟ إن ما تبقى أمامنا لا يعدو أن يكون رحلة ممتعة في سهول شيلي .

قال أحدهم :

كابتن لاجواردیا ، لقد مارست حرب الهنود على مدة ثلاثين عاما ، إنها الابادة الشاملة لي من الطرفين ، إما أن يبيدونا أو نبيدهم ، نحن حوالي المائة و هم بالألوف .

قلت :

إذن لنصادقهم ؟ لماذا لا نسلك معهم سلوكا مغايرا يحببهم فينا ؟

هؤلاء الهنود لا يعرفون للصداقة معنى يا كابتن .

ذلك لأنهم لم يروا من القادة الأسبان غير العداوة و القتل و الحرق و الابادة لنربهم الصداقة هذه المرة .

و بدأوا بالهبوط إلى الوادي ، بلغوا أول السهول الخضراء في أواخر ابريل عام 1613 ، قدم الكابتن أنطوان دي لاجواردیا ، أو على الأصح كاتالينا دي أروزو الهدايا بل الرصاص ، و أحسن معاملة الهنود ، فأحسن الهنود استقبال لحملة الصغيرة ، و التي جاءت لأول مرة بالسلام والمحبة .

و يقول التاريخ :

الكابتن أنطوان دي لا جواردیا هو الذي اكتشف كل مجاهل المناطق الجنوبية من شيلي ، و إنه حين عاد إلى اسبانيا مكللا بالغار ، دعاه البابا " أوريان الثالث " إلى زيارة روما ، و عاد منها يحمل لقبا جديدا ، فارس الكاثوليكية .

ثم مرضت فجأة ، قال لها نافارو :

أنطوان ، ماذا يحدث بعد موتك ؟ سيكتشف سرك يا صديقي العزيز .

قالت في ضعف شديد :

و هذا ما يحزنني يا نافارو ، لم يعد مفر من أن أعترف بكل شيء للقس ، أعتقد أن الوقت قد حان لذلك ، نافرو ، ستجد في هذا الدرج كل ما كتبت عن حياتي ، منذ فارقت دير الانتوا هربا ، حتى يوم رقدت هذه الرقدة ، افعل بهذه اليوميات ما تريد ، أحرقها إذا أردت أو أعطها لمن بقى من أسرتي .

انطوان ، إنني حتى هذه الساعة لا أعرف اسمك الحقيقي ، و لا اسم اسرتك .

و ذكرت اسمها للمرة الأولى منذ فرت من الدير .

كاتالينا دي اروزو من قرية تافاليا قرب خليج بسكاي ، و الان يا صديقي ، اذهب وعد بالقس فقد حانت ساعتي .